... وقال الله ليكن نور !..

قصة بقلم محمد حمويه

.. في اللحظة التي ترك فيها الفرقة الصاخبة واجه امامه عالمه القديم : احقاده الصغيرة ، واحزان وحدته ، وعجزه الذي لم يكتشفه احد خيراً مما اكتشفه هو ، وطوح برأسه الى الامام وتمتم :

ـ دوما تسبقك الامور .. في الوقت الذي لا تجيء فيه الا متأخرا ..

وضع يديه فيجيبه ، واخذ يسمع وقع خطوانه الرتيبة كخطوات خفير في الليل ، وسبحت امام عينيه في الظلمة مصابيح الشارع الواهنة ، واخذت قدماه تسيران كأنهما تتمتعان بارادة حرة منفصلة عن ارادته ، لتقذفا به الى طريق النهر الذي يخترق المدينة ..ولو لم تكن هذه الامطار الناعمة قد غسلت اسفلت الشارع قبل خروجه بلحظات لكانت الليلة هي نفس ليلة الخريف التي سار فيها بمحاذاة سور النهر الرخامي .. وحيداً .. واضعا يديه في جيب سروال رخيص ، وقد احتمى بقميص (الكاكي) الذي يشبه القمصان التي يرتديها الجنود ، يستمد منه الدفء عبثا ، والذي كان سببا وجيها في ان يهرب من حفلة اقامها رفاقه المتخرجون من قسم اللغة الانكليزية في تلك الليلة ..

ـ النسور وحدها هي التي تنفرد فوق اعلى القمم ..

كنت تفسر الامور كما تريد ، وكنت دوما تنتصر لنفسك ، فليس هناك الا حقيقة واحدة ، وهي في جانبك دوما .. سيدركون انني على صواب ، والا فمن قال ان الناس معصومون .. الناس الذين يتمرغون في وحل نفاقهم وانانيتهم وانحطاطهم .. واما انت فستظل كثلج القمة البكر الذي لم توسخه قدم انسان ..

سينهض « سمير » حتما ، وقد احاط جسمه بفاخر اللباس ، وسيتشدق بالانكليزية فيما اذا وقع ذكر اسمك ..

ـ اعذروه .. انني اعرف « لؤيا » معرفة فراسة .. انه من هذا النوع الذي يتسامى على البشر المساكين امثالنا .. النوع الذي يظن ان له رسالة سامية يجب ان يؤديها الى الناس وقد تلعب الخمر في الرؤوس ، وسيقول عندئذ احدهم :

ـ اوه .. دعونا من ذكر هذا الفلسطيني الدعي .. ان كانت له رسالة فمن الافضل ان تكون هذه الرسالة هي تحرير بلاده .. وانني على استعداد أن اراهن على المبلغ الذي تريدون ان استطعتم ان تذكروا لي مظاهرة واحدة اشترك فيها هذا النبي ..

النبي .. حقا ستقال هذه الكلمة بالذات ، ولن يعدو ذلك المقتاب عندئذ الصواب ، ان ايمانه بنبوته ليس شعورا عابرا ، فقد قال لوالده عندما كان هناك يافعا ، وقد الهب الصيف خضرة الكرم وعناقيده بلونه الذهبي ، وبرائحته التي لا يشاركه فيها فصل من الفصول ..

ـ عندما اكبر سأكون نبيا كواحد من هؤلاء الانبياء الذين حدثتني عنهم .. سأكون بصورة خاصة مثل ابراهيم الذي كسر الاصنام بفأسه، ليهزأ من اولئك العميان الذين تولوا مهمة الدفاع عن آلهتهم المهشمة..

ضحك الرجل الشيخ اذ فوجيء بهذا الكلام ، والتمعت لحيته البيضاء بنور الشمس ، وشعت من عينيه بقية انوار تقترب من ان تخبو:

ـ ولكن عهد الانبياء قد مضى يا بني ..

ـ ولكنني اريد ان اكون نبيا ..

ـ ان الانبياء يتألمون كثيرا ..

ـ لن ابالي بالالم الذي يوقعه الاشرار بي .. فستنتصر لي السماء ..

ـ ولكن ما الذي دعاك لان تفكر بهذه الامور .. لقد ختمت الرسالات ..

ـ لا يمكن ان تختم الرسالات .. ان الله عادل .. وهو لن يتوانى عن ان يرسل في الوقت المناسب نبيا يتكلم باسمه ..

ـ خذ هذا ودعك من هذا الكلام .. نسيت ان اسألك .. كيف كانت نتيجتك في الامتحان الاخير .. انني لا اشك بنجاحك ولكنني اريد ان اعرف الدرجة التي حصلت عليها ..

ـ الدرجة التي تجعل الجميع يشعرون بالغيرة ..

طبع على خدك قبلة .. واخذت من يده عنقودا من العنب الذي طبخته الحرارة ، ولكنها لم تفقده حلاوته وعذوبته ..

جلس على السور الحجري الذي يحيط بالكرم وقال لك بحزن :

ـ لا تنس يا بني ان تدفنني امام البيت كما قلت لك .. تحت شجرة البرتقال .. الشجرة الوحيدة التي امتلكها منه .. لقد كان في نيتي ان امتلك بيارة ، البيارة هي الهدف الذي سعيت له كل عمري .. ولكنك كما ترى ، لم احصل الا على هذا الكرم الصغير .. يبدو اننا اذا ما اردنا الاشياء الصغيرة علينا ان نسعى لما هو اكبر منها .. والا فلن نحصل على شيء البتة ..

لقد سعيت طوال عمرك لان تكون ذلك النبي ، وكنت على يقين من ان السماء ستفاتحك في هذا الامر في يوم ما .. اذ ليست النبوة غريبة عن تلك الارض التي انجبتك .. ولكن ما الذي حصلت عليه .. لقد صرت مدرسا للغة الانكليزية .. حيث تنتظرك كل ليلة رزمة لا بأس بها من اوراق التلامذة لتمضي معظم الليل في اصلاحها والنظر فيها ، لتخلو بعد ذلك الى كتاب تقرأ منه فصولا قبل ان تسلم رأسك للوسادة .. الهدف واحد .. ولكنك غيرت الطريق اليه .. ان تقرأ.. ان تقرأ كثيرا لعلك تصل الى اليقين .. والبارحة قد استبدلت بنظارتيك نظارات اخرى اكبر منها درجة واحدة .. ولو رآك والدك وانت مكب على تلك الاوراق لقال لك بسخرية :

ـ ان الانبياء لم يعرفوا الانكليزية ابدا .. الانكليز الذين باعوا بلاد الانبياء لقتلة الانبياء .. لقد كان من المفارقات حقا ان تختار هذه اللغة .. لغة الذين كانوا سببا اصيلا من اسباب وجودك في هذه المدينة وحيدا .. ضائعا .. واضعا يديك في جيبك ، وقد رفعت طرف معطفك الى اذنيك كي تحميهما من لذعة البرد .. لقد صار لك معطف يقيك البرد بدلا من ذلك القميص الذي يثوي في احد ادراجك للذكرى .. ولكن ما الذي تغير فيك غير ذلك ؟ . ما الذي افدت من كل هذه الكتب التي قرأتها .. ألم يقل لك « ابو حميد » البقال وقد دخل غرفتك ذات يوم فدهش من هذه الكتب التي تملأ رفوف غرفتك ..

ـ أقرأت هذه الكتب كلها يا سيدي ؟ . لا بد انها علمتك الكثير..

وما هو الكثير الذي علمتك اياه الكتب ؟ لقد كنت تعرف اين تقع كوبا ، وكنت تعرف طبيعة الاحداث التي وقعت فيها خيرا من ذلك البقال، ولكنه كان يعرف كيف يبيعك الفاكهة باكثر مما تباع عادة .. ولكنكما كنتما تستقبلان الحياة معا كما يستقبلها سائر الناس ..

حتى الاهداف الكبيرة التي كنت تسعى اليها ما الذي حققت منها؟.

لقد شارفت الثلاثين .. أمضيت نصفها في تلك الارض التي اغتصبها العدو .. ونصفها الاخر في هذه الارض التي آوتك .. استطعت ان تحصل في النهاية على اجازة اللغة الانكليزية فانقذت نفسك من خيم اللاجئين .. ومن صدقات امم الارض التي شكلت قسما لا بأس به من الدماء التي تجري في عروقك .. وكنت تعد ذلك خطوة الى الهدف العظيم الذي تسعى اليه .. حتى المظاهرات كان عدم الاشتراك فيها هو جزء من مخطط الوصول الى الهدف ما دام سكوتك يوفر لك الامن من هراوات الشرطة ويتيح لك الوقت للدراسة .. وكنت تستطيع دوما ان تكبح من جماحك فلا تندفع مع الجموع لتفسل كل هذا الذي يكنه فؤادك فتصرخ وتهتف ، وتسيل الدماء على وجهك ، وتشعر بوجيب قلوب المتظاهرين من حولك بكل حرارتها وايمانها ..

التخطيط يعني دوما ان تمشي خطوة خطوة الى الهدف الذي رسمته لنفسك ، قد يسميه الاخرون هروبا وجبنا ، ولكنه في عرفك نظام يؤدي الى الغاية وان طال الطريق قليلا ولكن الوصول مضمون حتما .. لقد آمنت بهذا الكلام طويلا حتى في ذهابك الى البيت الذي خرجت منه مدحورا تستقبل الظلام .. كنت قد اعددت مخططا كاملا قبل الذهاب .. لقد ذهبت الى المكتبة وابتعت كتابا وضعته تحت معطفك لتقيه من البلل .. اترى ماذا تقول « باسمة » لهم الان :

ـ لقد غادرنا لؤي.. تصوروا ماذا كانت هديته لي في عيد ميلادي..

سترفع الكتاب بيدها عاليا فينتهز « يعقوب » الفرصة ليقول :

ـ الكتاب دواء يعالج به بعض الناس جرحا خفيا في اعماقهم ..

« يعقوب » سيكون نجم الحفلة .. ما اعظم مفارقات الحياة .. يعقوب الذي كنت تحميه ايام الدراسة من عدوان التلاميذ ينتصب اليوم امامك كالعملاق ، يثير فيك الكره ، والخوف معا ، كيف تبدل هذا الانسان من مسالم تبسط له الحماية الى افعى تعض قدمك فلا ترحم .. ألم تلحظ نوع الابتسامة الحاقدة التي كانت على شفتيه .. لقد بدا واضحا لكما انكما تتنافسان على هدف واحدة ، لم تصرح بحقيقة شعورها لواحد منكما .. لعبة الانثى الازلية .. الانتشاء من رؤية الصراع الدامي حولها .. ما الذي يشدك الى هذه الانسانة ؟؟ الانها تحمل عبقا من تلك الارض التي يأكل عناقيد كرمك فيها الاعداء الذين صرعوا والدك برصاصهم ولم يعطوك المهلة الكافية ، لتحقق وصيته الاخيرة ان ينام تحت الشجرة التي تظلل قبره ، وتعطر الجو من حوله ..

لا بد ان تنتهي هذه اللعبة .. فلكل لعبة نهاية .. ليس لديك من الفراغ ما تضيعه وراء نزوات انثى .. اما انت او يعقوب .. ولكن ما الذي تعده لمثل هذا الاختيار ؟ .. ان « يعقوب » يمنيها باللباس الفاخر والسكن المريح .. ما دامت اموال بعض اقاربه تتدفق عليه من امريكا .. ولكنك تعرف « باسمة » جيدا ربما فكرت في شيء من هذا ولكنك واثق من ان روحيكما متفاهمتان .. نظرتها الشفافة المثقلة بالحب الصامت تعرب عن هذا .. ولكنك لم تضع حتى الان خطوة واحدة .. على الطريق الطويل .. فلا بد من الجرأة والمبادهة .. ان التخطيط للهدف لا يكفي وحده .. ان المجروح الذي لا يجرؤ على ان يقتلع الحربة التي تنغت السم في جسده لهو قاتل نفسه ..

القذارة .. والتفاهة .. والضياع .. هو كل ما يحيط بك .. ظلام مطبق لم تستطع شمعة واحدة أن تبدد منه شيئا .. لقد كان والدك يقول :

ـ لا يمكن للانسان ان يظل في ظلام مطبق .. ان يد الله الرحيمة لا بد ان تقدم له في الوقت المناسب نورا .. ربما كان ضئيلا .. ولكنه نور على كل حال .. ان في قلب كل ظلام ، مهما كان حالكا ، مقدارا من النور ولو كان ضئيلا .. فلا بد ان ينفذ اليك نور ما مهما كان ظلام الغرفة شديدا ..

وحتى هذا اليوم لم يرتفع امام ناظريك ذلك النور الذي يبشر بتبديد الظلام .. حتى حبك الصامت اخذ يتهشم بيد رجل كنت تحسب انه اخر من يمكن ان يكون عدوا ومنافسا .. ان امالك الحلوة .. تتحول بعيدا في الاعماق في صمتها الطويل الى احقاد صغيرة ... لم تجر الرياح كما اشتهت سفينتك .. انك تأبى ان تعترف بانك في طريق التحول الى انسان اخر .. لان ما يخيفك في واقع الامر هو هذا التحول نفسه .. في الداخل ثائر متمرد .. يحلم بتحطيم الاغلال ، ولكن العوينات المذهبة الحواشي ، وياقة القميص الابيض المنشاة ابدا ، واللباس الذي يحفظ لك المظهر الذي لا ينبغي ان يجرح عيون الاخرين هو قيد جديد تضيفه الى يدي الثائر الذي يستكن في الاعماق.. حتى المخيم لم يذهب اليه منذ سنة ونصف ، منذ ذلك العيد الذي ذهبت فيه مضطرا لترى بعض الاصدقاء القدامى ، ولن تنسى مطلقا كيف تجنبت خيمة « ابي صابر » الرجل البائس ، الذي كان وجيها في بلدتك الصغيرة هناك ، واحد اصدقاء والدك الاوفياء .. فتسمرت قدماك عندما سمعت صوته يناديك من الوراء ، فاستدرت على استحياء لتدخل الخيمة .. اجلسك على كرسي خشبي صغير ، واخذ يعيد عليك الذكريات التي مضت .. لقد كانوا هناك في المخيم يعيشون على حلم العودة .. فلم تستطع ان تكمل كأس الشاي الذي قدمه لك اذ وجدت ابنه الصغير « صابر » ينظر الى الشاي الذي لا تجود به الوكالة الا نادرا ..

ـ لقد انتظرت مجيء غلام طويلا ..

ـ لم يشأ الله ان اموت دون ان يحفظ ذكري ..

لقد انقلب ابو صابر الى صوفي شبه معتوه ، فقد قال لك رافعا سبابته محذرا عندما حدثته عن امكان العودة الى البلاد ..

ـ « يتيهون في الارض اربعين عاما » صدق الله العظيم .. لا بد من اربعين عاما نضيع فيها في الارض قبل ان نضع اقدامنا على تراب الارض المقدسة .. ولكن اتدري لماذا خص الله هذه المدة بهذا السر؟!.. حتى يهلك كل اولئك الذين تدنسوا بالجهل فلم يدفعوا عن ارضهم العار ..

لم ينقطع نظرك عن لحية « ابي صابر » كانت بيضاء تذكرك بذلك الذي صرع في الكرم .. وان كان ابو صابر يصغر والدك بعدة اعوام.. وفكرت .. كيف كان منظره لو كان حيا حتى الان ؟! أكان يرضى بأن يعيش في مثل هذه الخيمة؟ وكيف يجد طعم الشاي الذي تقدمه له امم الارض صدقة بل ثمنا للسكوت ..

ـ انني لا اجد ارضا اموت فيها خيرا من ارض فلسطين ..

اعاد عليك ابو صابر قوله ، متمنيا لو انه مات مثله هناك .. حتى الموت في تلك البلاد استحال امنية عزيزة المنال ، انك تشعر بالكبرياء والفخار بل والاسى ايضا عندما تسمع كثيرا من المهاجرين يرددون قوله هذا الذي قاله عشية داهم العدو البلدة ، فاخذ بندقيته العتيقة وخرج الى الكرم يترصد العدو ..

ان لحية ابي صابر البيضاء نذير باقترابه من النهاية .. انه من شهود الاثبات .. اثبات الجناية التي مثلت في وضح النهار فوق تلك الارض الطيبة .. لقد كانت مسألة فناء الشهود واحدا بعد الاخر تقض مضجعك .. فقد كنت تتصور الامر على نحو جعلك تحسبه حقيقة في اخر الامر ، تخيلت انك تمشي في ليلة ملأ الضباب بها شوارع المدينة ، وكان ثمة في الظلام وقع اقدام رجل يسير ، وفجأة لاح من خلال الضباب نور باهت لسيارة تسير بسرعة عظيمة .. فاعقبت صراخا حادا ارسله الرجل .. صرخة مدوية .. اذهلتك فالتصقت بالجدار منكتم الانفاس .. ثم ساد السكون كل شيء .. سكون حار لزج كالضباب .. لم تتبين السيارة .. كما لم تتبين الجثة التي فارقتها الحياة فلم تعد ترسل وقع خطواتها وهي تسير نحو غايتها .. فاخذت تسرع مبتعدا ما استطعت عن مكان الحادث .. مكان الجريمة .. التي لم تعد تملك شاهدا واحدا يرشد الى القاتل الذي تدرع بالضباب .. لقد كنت الشاهد الوحيد الذي يعيش في مكان ما من المدينة ، والذي ظل صامتا .. وان كانت تلك الصرخة الحادة المستطيلة كالعواء لا تزال تملأ أذنيه ..

ـ أتعرف لماذا سميت ابني « صابرا » ؟!

ـ لمـــــاذا ؟ ..

ـ عليه ان يصبر حتى تنقضي سنوات الضياع .. ولا بد مـن ان يعود بعد ذلك الى بيتنا القديم .. لقد حدثته عنه كثيرا ..

لقد هذى الرجل البائس بكلام كثير .. ولقد كان ايمانه بحتمية المنيه مدعاة للعجبوالرثاء معا .. وهو ما قد عرضه لاهانات بعـض الشباب الذين لم يعرفوا كيف تبدل الفواجع بعض الناس تبديـــلا تاما .. اما انت الذي شهد الرجل في ماضيه هناك وفي حاضره هنا تغتبط عندما تجده لا يزال يؤمن بالعودة بعد هذه السنوات ، ولكنـــك لم تر صديقك « سمعان » الذي كان يمضي معظم اوقاته في المقهى الحقير بجانب المخيم ، يحتسي الشاي الاسود ، ويقرقر بنارجيلتـــه طوال الوقت ويوجه الكلام لمن حوله باعتداد .

ـ ان قضيتنا تنحل بكل بساطة عندما يقضى على الاستعمار فـي كل مكان .. لذلك فان اول خطوة للعودة ان نناضل ونكافح هـــذا الاستعمـار ..

ولقد كان يكافح الاستعمار ذات يوم بتنظيم عرائض يدعو فيها الى السلام العالمي ، ومحاربة الاسلحة الذرية .. يفعل ذلك في الـــوقت الذي يتناول فيه وجبات الطعام الذي يتصدق به الاستعمار عليـــه بوساطة الوكالة .. وقد بدت تلك الصدقة الصغيرة تشي عن نفسهـا بتلك الصفرة التي صبغت وجهه المنتفخ .. لقد تحول هو ـ بكـــل بساطة ـ الى انسان اخر يدافع عن قضية اخرى ..

هناك ضوء بعيد لسيارة قادمة .. انتظر حتى تمر .. فلا بد من الرجوع الى المنزل .. بعض النجوم تلتمع في السماء ثم تحجبها غيوم لا ترى .. غرفتك الان غارقة في ظلمتها .. وعلى الطاولة رزمة مـــن اوراق التلامذة لا بد من النظر فيها هذهالليلة .. كفاك مشيا مـــع النهر .. انه يقودك بعيدا بلا جدوى ..

اغتبط عندما رأى نور غرفة صاحبة المنزل مطفأ ، سيتخلص من لومها له على الاسراف في السهر ، فقد كانت كلمة السهر لها مدلولان، مدلول عام للناس ، ومدلول خاص يعرفه هو وهي ، الاسراف في النور، لقد كانت اشد حساسية من عداد الكهرباء في صرف كل ذرة مـــن النور .. ولقد قام كالعادة بدورة حول الباب لكي يدرك « مفتـــاح » الانارة الذي ركبه صانع يبدو انه احمق .. اذ كان يضطره الـــى ان يخطو خطوات في الظلام ، ثم يتحسس في الظلمة المفتاح كي يدركه ، وهو ما كان يضايقه اشد الضيق .. ثم تعود فيما بعد على هذهالرحلة الصغيرة في الظلام .. كما اعتادت يده على ان تمتد فلا تخطىء مكـان مفتاح الانارة ، كأن لها عيونا تبصر فيها وسط الظلمة التي تغمـــر الحجـــرة ..

أشاح بوجهه عن الواجب الذي يدعوه على المنضدة .. فـــوقف تجاه المرآة المعلقة فرأى ان من الخير له ان يبدأ بحلاقة لحيتهاولا .. واراد ان يبدد من جو الكآبة الذي يسيطر عليه فاخذ يصفر لحـــن اغنية .. ثم قصد احد الادراج واخرج قميصه الاصفر القديم وعبثت اصابعه بسرعة وعصبية في جيوب القميص ، اخرج ورقة قديمة قربهـا من الضوء واخذ يقرأ ، كانت الكتابة بالحبر العادي ، مسودة للمنشور الاول الذي لا بد ان يرى النور ذات يوم .. متوجا بعبارة كبـــيرة ـ جبهة تحرير فلسطين ـ لا بد من ان يشهد ميلاد هذه الورقة ، والا فلن يرى ذلك الثائر الصغير النائم في اغلاله النور الى الابد ..

تذكر فجأة انه نسي ان يبتاع شفرة ، وابو حميد على وشـك ان يغلق حانوته ، فطوى الورقة بعناية واعادها الى مكانها .. لا بد ان يكلم بعض الشباب في امرها غدا .. اسرع بالخروج ونسي البـــاب مفتوحا .. والنور مضاء .. ولكن لحسن حظه كانت صاحبة المنـــزل تغط في نوم عميق .. وتجرأت دفعة من الهواء ، على ان تدخل الغرفة فتعبث بثرية الكهرباء الصغيرة المتدلية من السقف ، فتحركها حركات صغيرة سريعة متتابعة ، مما جعلها ترسل على الجدران المتقابلة نورا .. راقصا .. زاهيا ..

محمد حمويه

حلب

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتّاب المسرح

صدر منها :

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتـر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ـ ماريانـا

تاليف فديريكو غارسيا لوركا

ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تاليف مرغريت دورا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ـ لكل حقيقته

تاليف لويجـي بيراندلـلو

ترجمة جورج طرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ـ تمت اللعبـة

تاليف جان بول سارتر

ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت